

العوامل الاقتصادية والاجتماعية

في حدوث الجرائم

الاحتياجات الطبيعية

واشرف من ترى في الارض قدرا يعيش العمر عبد فم و...

هذه كلمة ذهبية قالها الفيلسوف العربي الكبير ابو العلا المعري وهي عامة لبني الانسان مهما سميت تربيتهم وتعاليت في سلم الكمال صفاتهم . وهو انما يقصد بذلك فقدان الحرية المطلقة مادام هذا الانسان طوال حياته عبداً للاحتياجات الطبيعية وقد قال مثلها كثير من الحكماء ولكن قلما وجدت مثل هذه الصراحة في اقوال احد منهم . قال الحكيم الكبير الالماني « شيللر » : ان ما كنهه العالم متحركة بالجوع والعشق . والحق ان هاتين الحالتين في الانسان كانتا ولا تزالان حتى الفناء من اهم بواعث الجدال في الحياة . ولسنا نقصد في بحثنا هذا ان نذكر امر الجوع كفلسفة نظرية وانما نريد ان نتبع هذا العامل في احداث الجرائم وكيفية تأثيره ولسنا نريد ان نأتي بهذا الصدد بفلسفة من عندنا بل نريد ان نستند في ذلك على بعض الاقوال المشبهة لعلماء الاجتماع في هذا العصر .

فاليك بعض ما يتعلق بهذا البحث ملخصاً عن كتاب « الجرم والمجتمع » لمؤلفه (اندره لوردلو) .

ان التزامهم في العالم الحيواني لسعي الكل وراء تأمين حاجياته العضوية يكون دائماً معكوس النسبة شأنه في المجتمعات الانسانية مع وفرة المحصولات والسهولة الميسرة . فالفيران المحبوسة ضمن قفص

وجائعة يقتل بعضها بعضاً . والطيور الكاسرة تتقاتل بشدة من اجل صيد تحتطفه . ويقول (لومبروزو) بان الكلاب التي تربي صغارها بنفسها كثير ما تصيح سارقة في سبيل اعاشتها . وهكذا السرقة في المجتمعات الانسانية فقد وجدت منذ القديم . وقد مضي حين من الدهر كان فيه جزاء السرقة والتجاوز على ملك الغير اشد من جزاء القتل والجنايات الاخرى ضد بني الانسان . ولم تكن انواع التعذيب وآلام العقاب قادرة على تنقيص الجرائم في زمن ما . ومتى مارأيت تناقصاً في الجرائم فما ذاك الا من تحسن شرائط الحياة في المجتمع . ويقول الفيلسوف (سبنسر) :

(ان الطريق الضيق هو سبب لاصطدام بعض المارين ببعض . وفي طريق عريضة ومتسعة تمر امة باسرها دون ان يصطدم افرادها) فالتعقل والاخلاق وكل انواع التعذيب لا يمكنها ان تقف في وجه مظاهر احدى الاحتياجات العضوية . اذ انه يتحتم على كل مخلوق حي ان يقوم ببعض الحركات العضوية تأميناً لدوام حياته . فخرمانه من القيام بهذه الحركات من بواعث الشوق في روحه . وهذا الشوق يبدأ بشكل رغبة ضعيفة فتزداد بشدة . ثم يعقب هذه الشدة اندفاع اعمى يلقيه في هاوية الجريمة . وبالعكس اذا هو لم يتمكن من اخراج هذه الرغبة من حيز القوة الى الفعل تتولد عنده فكرة سوداء . فجنون مطبق ولا يمكن تسكين الاحتياج الطبيعي الا بتأمينه . وبالدرجة الاولى من التأثير بين هذه الاحتياجات العضوية المبرمة : الجوع والعطش حيث يصعب كل الصعوبة على الانسان ان يتحمل نصف هذه المؤثرات القاهرة . اذ تتلاشى ارادته تجاه هذه الاحتياجات . يقول العالم

(كارديقالو) مامعناه : « ما قولكم في رجل يموت جوعاً بلا ذنب منه »
أيعد مسيئاً فيما لو سرق قطعة من الخبز ليستعين بها على ادامة حياته)
ثم ان الارقام التي استنتجها « ماكسيم دو قامب » من درسه حالة باريز
اثبتت بان عدد الجرائم التي ارتكبت كانت تزداد وتنقص تبعاً لثمن
الخبز . وقد ايدت جميع الاحصاءات صدق هذه الحقيقة . فواقات الغلاء
يصحبها دائماً عدد كبير من السرقات . وان في زمن المجاعات الكبيرة
في الهند يتضاعف عدد الجرائم . وفي تونسكين تظهر عصابات اللصوص
عندما تكون زراعة الارز غير مشمرة او معروضة لطغيان المياه .
وهناك المجاعة الاخيرة في روسيا حيث ولدت الرجوع لاكل لحم الادمي
وقد وقع مثل هذه الجرائم في عدة اماكن وقبائل التوارق الذين
يقطنون البلاد الغير مشمرة يصبحون بحكم الضرورة قطاع طريق .

ثم ان للتأثيرات الجوية عمل كبير في المجتمع وفي نوع الجرائم التي
تقع فيه . فالتجاوز على الملك يزيد في الشتاء اكثر من الصيف . وقد
تحقق هذا الامر من نتيجة الاحصاءات التي ضبطت من تاريخ ١٨٢٧
الى ١٨٧٠ وقد تبين بان عدد الجرائم التي وقعت على الملك في الشتاء
كانت ١٥ جريمة في حين لم يقع في الربيع الا ١١ وفي الصيف ٦ وفي
الخريف ٥ جرائم . فهناك توازن جلي ما بين الموسم والجرم وان شئت
فقل بين وفرة المواد المغذية والجدال الضروري من اجل تأمينها .
واما الجرائم ضد الاشخاص فهي اكثر عدداً في جنوب فرنسا بالنسبة
الى شمالها وكذا في الولايات المتحدة فان الجرائم في الولايات الوسطى
منها هي ١٥ مرة اكثر من الجرائم في الضواحي . واما التجاوز على
العادات والاعتصاب فهما بكثرة زائدة في الصيف ، وهما يتوافقان مع

اوقات الاخضرار الكثير . ويظهر بان الحرمان من الملامسة في الصيف يكون اكثر الماء بالنسبة لغيره من المواسم وذلك لان الاحتياج حينئذ يكون اكثر تضيقا . ويقول المؤلف هل يرتكب المعتصب جرما مثل هذا فيما لو امكنه تأمينه بانتظام .

كل هذه الوقائع توضح بان الجرم هو مثل بقية الحوادث الاخرى . تابع بصورة اضطرابية لنظام معين . وقد كتب احدهم يقول [وكم من بين هؤلاء الذين لا يسرقون لانهم غارقون في النعم من لو خلقوا فقرا لا متلات بهم السجنون] وقال آخر (تعلمت في مدة حياتي ان اتعرف على عدد كبير من المحكومين ولكني لم اكتشف من بينهم الا طبقتين من الناس . الطبقة الاولى كانوا مرضى . والاخرى . . . اراة . . . واما هذه الطبقة المحكومة فكلماتي كنت من النفوذ الى حالاتهم والى شخصياتهم كنت اقول في نفسي متسائلا هل لا كنت اصنع صنيعهم فيما لو كنت في الظروف التي وجدوا بها) . يقول افلاطون الحكيم [ان حكومة يوجد فيها طبقات ليست بحكومة واحدة وانما تتشكل من حكومتين . الفقراء يشكلون الاولى والاغنياء يشكلون الثانية . والاثنان تعيشان معا ولكنها تتبادلان المصادمة وبدون انقطاع ؛ ان من دواعي الاجرام فقدان التربية وليكون الحكومة هي سيئة في عضويتها وفاسدة في تشكيلاتهما .] وقال ارسطو [ان حالة العدد الكبير من بين الفقراء مما توجب الاسف وفوق الامكان منع مثل هؤلاء الناس من ان يصبحوا جناة .] وقال جان جاك روسو [ما اسعد تلك الامم التي يستطيع فيها الانسان ان يكون صالحا بدون عناء وعادلا بدون ان يكون له في عدله منة

ولا فضل . والحكومة التعيسة في العالم هي الحكومة التي لا يستطيع افرادها ان يعيشوا بدون ايقاع الشرور ويكونوا بسائق الضرورة مرانين محتالين . وعليه فليس هؤلاء هم المجرمون الذين يجب اعدامهم بل اعدام حكومتهم التي الجأتهم للوقوع بمثل هذه الجرائم .

ولست انتقادات العلماء المعاصرين بأقل من هذه الانتقادات المتقدمة . فقد قال (الدكتور طولوز) مامعناه : [ان المجتمع الذي باهماله يساعد على النزول الحكمى في طبقة من طبقات الناس ويسوقهم لحالات البؤس والشقاء هو مجتمع فاسد الاخلاق . كما ان المجتمع الذي لا يهيئ الاسباب والوسائط الضرورية التي تساعد على ابراز المواهب الكامنة في افراده التي تزيل كل واحد القسط الذي يستحقه في هذه الحياة لهو مجتمع فاسد الاخلاق من هذه الوجهة ايضا)

وقال (دورا) [قبل ان يميل المجرمون الى السرقة . تراهم يسقطون في ورطة البؤس تباعا وبالطبع فهم يشعرون ضد التشكيلات الاقتصادية ناظرين اليها كأنها تأسست على الظلم .

وقال (دوروبيتري) في كتابه (ماهو الجرم) [الجرم هوثرة العضوية الغير صالحة سواء كانت هذه العضوية الحكومة او المجتمع الاقتصادي او العائلة] . وقال الدكتور (دورا) [ان السبب الاول في ايقاع الجرم من قبل الكثيرين ممن نسيبهم بالمجرمين يعود اولا على هذا الوسط الغير بصير ، والذي لا يريد عمل الاحسان ، بما يفضل عنه ليسد من هؤلاء المجرمين احتياجات ضرورية لا يمكن مقاومتها منهم] . وقال (ايلي ده قلوبس) [لقد تكرر القول بان التمدن يزيد في التغذي والتغذي يزيد مع التمدن وان نوع الانسان يزيد

او ينقص بنسبة وجود المواد التي لا غنى له عنها . وكل ما كثر وجود الخبز ، كثر عدد الناس ، وكل ما حسن وانتظم توزيع الخبز ، كل ما اصبحت الناس في حالة احسن [. ويقول (الدكتور قورر)] يؤخذ البائس الجائع الذي يفتصب بسبب الاحتياج الملجئ ، في بلادنا كمجرم . واما في بلاد انام وقضاياهم نسخة عن قضايا الصين ينظرون اليه كخلق وجبت عليه الشفقة . فيعفونه [وخلاصة ما يقول (فدرري)] كل ما تحسن العدل الاجتماعي يتناقص عمل العدل الجزائي [. وهذا ما اعني عنه بقولنا (لو انصف الناس استراح القاضي) . ولكن هذا الانصاف يجب ان لا يقتصر على الافراد من الناس تجاه بعضهم . بل يجب ان يتعداه الى المجتمعات فتكون التشكيلات الاجتماعية كلها مؤسسة على هذا الاساس فيشمل العائلة والوطن والانسانية وما يتبعها من الملاجئ الخيرية وكل ما يقتضيه هذا العصر من الحاجيات للامم وبهذا تتجلى الحكمة من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد قال (كهتهلث) مخاطباً الهيئة الاجتماعية بامعتها (ليس عليكم الا ان تغيروا على مقتضى الحال والزمان هذا النظام الجائر وحينئذ ترون تغيراً متناسباً في الحوادث التي كانت تحدث تبعاً لهذا النظام . دعوني اتنفس هواء انقى ، هذبوا الوسط الذي انا مضطر للعيش فيه . فهناك تعطوني حياة جديدة . ان انظمتكم الحالية تجيز بل وتساعد على نصب الحبال والاشراك في طريقتي ، ثم تضربوني اذا زلت بي القدم وسقطت فيها على اني لم اكتشفها . اليس من الواجب ان تسعوا لسد الحفر الموجودة في السبيل الذي انا مرغم على السير فيه . واقل ما في الامر ان تنيروا لي طريقتي) .

هذا لسان حال الذين يرتكبون الجرائم تجاه المجتمع والحكومات وقد قال الشارع الاعظم [كاد الفقر ان يكون كفرا] فاذا كان الفقر من اهم الدواعي والعوامل في تبديل العقيدة الدينية التي هي اعز شيء لدى الانسان حيث يخرج من نور الايمان الى ظلمة الكفر فكيف لا يكون كذلك من عوامل الجرائم في هذا المجتمع . فسمعيد ذلك الانسان الذي يعضده المجتمع فينقذه من برائن الكفر والفقر وسعيد ذلك المجتمع الذي يربي هذه النفوس العالية المتعاضدة المتكاتفة . حتى اذا ما اصاب احد اعضائه تألم له جميع جسم المجتمع وروحه .

د . ابو العافية

يتبع

ابعضهم

احق بالصفح في الدنيا ثمانية	لا لوم في واحد منهم اذا صفعوا
المستخف بسلطان له خطر	وداخل الدار تطفيلاً بغير دعا
ومنفذ امره في غير منزله	وجالس مجلساً عن قدره ارتفعوا
ومتحف بحديث غير سامعه	وداخل في حديث اثنين مندفعوا
وطالب الخير ممن لا خلاق له	ومرتجي الفضل من اعدائه طمعوا

